التحليل العلمي والنظر المعياري الشامل يجب ان يكونا أساس الفكر العربي الحديث المجرد من كل تبعية ثقافية

الأستاذ محمد عبد المولى (تونس)

المذهب عامة ، هو غير النظرية وغير النظام ، وكثيرا ما يخلط الناس بينهما جميعا . فالنظرية الاقتصادية او الاجتماعية او غيرهـا . تعكس صورة الفكر فى وجهه العلمي المجرد ، عندمـا يبلغ الفكـر مستوى معينا من الرقي فى تحليل الظواهر الاقتصادية والاجتماعية تحليلا علميا . قصد تفسيرها والكشف عن القوانين الاقتصادية والاجتماعيـة التي تسيـر الانسـان وتتحكم فى واقعه ونشاطه .

اما قاموس اكسفورد ، فهو يعرف النظام عامة ، بانه مجموعة من الاشياء متصلة بعضها ببعض بحيث تتكون منها وحدة مركبة .

والنظام الاقتصادي والاجتماعي ، هو مجموعة العناصر القانونية والاجتماعية مثلا : النظام ، الاقتصاد المغلق ، الاقتصاد الاشتراكي والشيوعي ، والنظـام التعاضدي الذي اخذت به تونس كاختيار اشتراكي وقومي فى نفس الوقت ، والآن وبعد ان عرفنا النظرية والنظام سيتضح لنا ما هو المذهب ؟ فالمذهب عامة ، هو المنهج الايديولوجي الذي يقود الفكر الى الحكـم بافضلية نظام معين أو بعدم جدواه كان يقـال : بان النظام الاشتراكي التعاضدي الذي اختارته تونس ، هو افضل من النظام الراسمالي ، لان النظـام الاول يحقق فى نفس الوقت العدالة الاجتماعية ، كما يحقق الديمقراطية الاقتصادية ، والحرية السياسية ، بينما النظام الراسمالي يهدف اولا وقبـل كل شـيء الى الربح الفردي ، ومن قال ربحـا فرديا قال انانيـة وجشعا واستغلالا وجميع التناقضات الاجتماعية .

وهذا مثال آخر . لناخذ مثلا مشكل التناسـل والازدياد الديمغرافي باعتباره مشكل القرن العشرين، وما يثيره هذا المشكل من نقـاش حـاد ، فـان الاختيارات التونسية ، هي كما اكـد الاخ احمد بن صالح فى الملتقى المغربي للديمغرافيا (1) ترمـي الى الحد من الازدياد الكمي للسكان (بواسطة اجـراءات وقائية) كتعلة لحل مشكلة التنمية الاقتصادية ، وانما تهدف فى الحقيقة والواقـع ، الى تنظيـم العائلـة التونسية . وارسائها على قواعد علميـة سليمـة ، منسجمة مع امكانيات العائلة نفسها ، الكفيلة بتوفير الحاجيات المادية والادبية لاطفالها ، حتى يكون هؤلاء فى المستقبل عناصر سكانية حية وفعالة ، فى زيـادة الانتاج والانتاجية وتنميتها .

تخلـف الفكـر والواقـع :

يمكننا ان نؤكد هنا بان المجتمع التونسي ـ رغم محاولات التطوير الجريئة ـ ما زال يعد متخلفا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ، ومتقدما بالنسبة للمجتمعات الاخرى المتخلفة ، واذا حاولنا تحليـل هذا التخلف وجدناه يتناول الميدان الاقتصادي ، والاجتماعـي ،

1) انظر لنا تحقيقا مفصلا فى حلقتين حول : الملتقى المغربي للديمغرافيا . العدد 120 والعـدد 121 من مجلة الشعب غرة فيفري و 16 منه 1969 . (للمؤلـف) .

والفكري . في وقت واحد . وهذا يعني ان هذا التخلف المتعدد الجوانب هو نتاج حتمي لتلك الهياكل والتركيبات الاقتصادية والاجتماعية التقليدية والمتجاوزة ، هذا التخلف ذاته في الهياكل والتركيبات يولد التخلف في الفكر ، والعكس صحيح ايضا اي ان التخلف الفكري ، قد ينمي التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، فالمبني على الفاسد فاسد ، كما يقال ، نحن اذن امام وحدة تركيبية تمثل التخلف في اجلى « تماساته » ، ومن الملاحظ ان المجتمعات المتخلفة بصفة عامة هي مجتمعات ، التحليل والبحث العلمي فيها متخلفان ايضا .

فما احوجنا اليوم ، الى ان نعمل بكلمات الامر التي وجهها منذ اكثر من عشرة قرون ، الاستاذ القيرواني ابو محمد ابن التبان الى بعض من تعلم عليه قائلا : « خذ من النحو ودع ، وخذ من الشعر واقل ، وخذ من العلم واكثر ، فما احد اخذ كثيرا من النحو الا احمقه ، ولا من الشعر الا اذله ، ولا من العلم الا شرفه ... » (1)

فمجتمعات يكثر فيها الانشاد الشعري ، وتكثر فيها المهاترات اللغوية ويقل فيها التحليل العلمي هي مجتمعات ، اما ان تكون سائرة ببطء في التنمية ، واما ان تكون كالواقفة ، تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، فهي بهذا الاعتبار كالراكدة ، واخيرا المجتمعات التي تتقدم خطوة الى الامام وتتقهقر خطوات الى الوراء هي بهذا الاعتبار سائرة في طريق النمو في التخلف .

ان ضعف الثقافة التاريخية والعلمية ، وفقدان البحوث والتحقيقات العلمية المتعلقة بجميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية ، والتربوية ، كل ذلك يفسر لنا اسباب **انحراف بعض الايديولوجيين وسياسيي العالم الثالث :**

ان هؤلاء يتخبطون في فوضى فكرية هي — في راينا — اتعس من الفوضى الاجتماعية والاقتصادية(2)

اذن نرى ، كيف ان التخلف المادي ينمي التخلف الفكري ويقود الى ما شاء الله من المحلقات المفرغة واللف والدوران . وهذا كله يقود الى اهدار طاقات المجتمعات الفنية كما يتسبب في كوارث وخسائر لا تدخل تحت عد او حصر ، فهل عمل المسلمون بمبدا : « ... واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم، وءاخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » ؟

التبعية الثقافية والمذهبية وانحرافاتها

ان المجتمعات العربية والاسلامية ومنها تونس، بمعطياتها المادية ، والاجتماعية ، والتاريخية ، تملي علينا طريقة خاصة في التحليل والاستنتاج لا يشاركنا فيها الاجانب ، فلنجرب — ونحن ابناء هذا المجتمع الفتي لحما ودما — ان نهضم ما درسناه في الشرق او الغرب وان نستقل بوضع طريقة علمية ، وعلم اجتماع تونسي ، عربي ، اسلامي ، له طرائقه واساليبه لدراسة مجتمعنا في جميع الميادين والقطاعات ، وفي تحليل هذا الواقع بما احتوى عليه من قيم فنية خالدة ، الى جانب ما تضمنه من فوضى وتناقض صنعت بعضها عصور الظلام والانحطاط (3) وصنع بعضها الآخر تخلفنا الفكري والمادي طيلة الاحتلال الاستعماري في العصر الحديث ...

ان استعمال المناهج والمذاهب المستوردة في دراسة مجتمعنا دون نظر الى طبيعته ، وحاجته ، وروحه ، هو خطأ منهجي في منتهى الخطورة ، انه مصدر سوء التفاهم والالتباس الذي كثيرا ما يقع في استعمال المناهج العلمية في غير ما وضعت له ، والواقع ان المجتمعات الاوربية تختلف طبيعة ونوعا عن مجتمعاتنا العربية والاسلامية كما تختلف عن المجتمعات الاخرى الافريقية الاسيوية ، ذلك ان المجتمعات الاوربية الحديثة والمعاصرة خاصة ، قد تاثرت بمؤثرات ، وحفت بها ملابسات ، ما راتها ولا عاشتها بمجتمعات العالم الثالث ... كالثورات المختلفة التي عصفت وما تزال تعصف بالمجتمعات الاوربية الغربية والشرقية : فمن ثورة فكرية في القرن السابع عشر ، الى ثورة سياسية في القرن الثامن عشر ، الى اخرى صناعية في القرن التاسع عشر الى ثورة اجتماعية لا نزال نعيش فصولها حتى اليوم ، كل

---

1) انظر : معالم الايمان في معرفة اهل القيروان لابن ناجي — الجزء الثالث — ص : 117 (المطبعة العربية التونسية سنة 1320 هـ) .

2) العبارة الفرنسية قد تترجم اكثر هذه الفكرة : Cahot mental plus cahotique que le cahot social...

3) انظر دراستنا عن المجتمع التونسي بين القرن الرابع عشر والثامن عشر . والانحطاط الثقافي في العالم الاسلامي ، (بالفرنسية) في مجلة جوهر الاسلام — العدد 8 — جانفي 1969 — ص 15 — 20

هذه الثورات بمذاهبها المختلفة وملابساتها الخاصة جعلت المجتمع الاوربي والغربي تركيبات وانظمة خاصة به .

وبحكم تاثر الباحثين الاوربيين ـ مدا وجزرا ـ بكل ما تقدم ذكره ، وبحكم استجابتهم لميولهم الخاصة وعواطفهم الشخصية ، كل ذلك جعلهم على العموم يقفون غالبا من التاريخ والمجتمع موقفا حياديا باسم الزعم القائل بالموضوعية والحياد العلمي ، فاذا ارادوا دراسة مجتمعنا ، رغم جهلهم الظاهر بطبيعته وروحه ولغته ... استعملوا وسائل منهجية قد تكون صالحة لدراسة مجتمعاتهم ، لكنها غير صالحة لدراسة مجتمعنا او مجتمعات العالم الثالث من افريقية وآسوية ، فالباحثون الاجانب عموما لا يدركون ولا يفهمون ، وما كان باستطاعتهم ان يدركوا او يفهموا ، طبيعة مجتمعنا والتطور التاريخي والاجتماعي لها ، فاذا تهافت باحثونا ـ وقد تهافتوا ويا للاسف الا من رحم ربك ـ على هذه الطرق المستوردة غثها وسمينها فانهم يفقدون بذلك موضوع بحثهم ويقعون في خطأ منهجي فاحش .

لا بد ، اذن ، من **اعادة النظر في جل دراسات الاوربيين والمستشرقين** ومن دار في فلكهم ، ان اكثر هذه الدراسات ، في رايئا ، وخاصة التاريخية منها اعتمدت على طرق تحليلية نقدية ، لكنها تجريدية وحيادية ، فهي من هذه الزاوية الاخيرة ، مضرة جدا وعقيمة جدا . لانها **تهمل النظرة المعيارية الشاملة** وتحكم على النصوص والوثائق بطريقة تحكمية ساذجة. فالشك مثلا ، في جزئية تاريخية ، من خلال النصوص، قد يلغي فترة تاريخية باكملها ، وهذا هو السبب الذي قلص التاريخ الاسلامي باكمله الى قرنين من الزمن تقريبا ، اضف الى هذا جهل الباحثين الاجانب، بروح الحضارة العربية والاسلامية ، مع ما يتبع ذلك من اضفاء مزاجهم الاستعماري او تعصبهم كأوروبيين « متفوقين » ، ذي ارجل بيضاء او سوداء ، كاثوليكيين كانوا ام بروتستنت ، لائكيين ام ملحدين ، ذوي تنكير لاطيني او جرماني او انجلوسكسوني او فكيف تكون بعد ذلك ، دراسات هؤلاء الاجانب ، من الناحية العلمية والموضوعية ؟ .

ان عدم ثقتنا بانفسنا وتخلفنا يحبب الينا كل ما هو اجنبي ، الى حد أن يوجد بين ظهرانينا جماعات تعتقد ان الخير كل الخير هو في تقليد اوربا الغربية ، وامريكا السكسونية ، وروسيا السلافية ، والمانيا الجرمانية » . اضف الى ذلك اننا ما زلنا نتابع ذلك التكوين الثقافي الغريب واللاعلمي حتى اليوم . مثلا : ما رايكم في تكوين رجل من تونس ، او من قطر مغربي آخر يدرس اللغة العربية وفقهها ، او اللغة العربية وآدابها او الحضارة العربية وتاريخ الادب العربي في فرنسا ... عن طريق اللغة الفرنسية وعلى اساتذة فرنسيين ؟ تخيلوا فرنسيا يغادر بلاده الى الولايات المتحدة ليدرس لغته القومية وعلومها وتاريخ بلاده على يد اساتذة امريكيين ! وعلى الرغم من كل ذلك نعتبر ان لكل قاعدة شواذها : فنحن لا ننكر فضل دراسات بعض الاعلام من المستشرقين الاوربيين المجتهدين امثال ماسينيون (Massignon) وماكسيم رودنسون (M. Rodinson) وجاك بارك (J. Berque) ولاوست (Laoust) وبروكلمن وشاخت (Shacht) اما اننا لا ننكر فضل طرق العمل التقنية المنظمة . التي سلكها ويسلكها رجال العلم في اوربا وامريكا ... خاصة فيما يتعلق بطرق البحث الفنية من تنظيم وتصنيف وتقسيم للعمل ... بعد هذا العرض لا مجال للتهافت على الغث والسمين من دراسات الاوربيين ، والاطمئنان العلمي الاعمى لكل ما ينتجه هؤلاء الاجانب ، وانسج على منوال طرق بحثهم التجريدية والسلبية .

فهل يستطيع المفكرون والمؤرخون اليوم في العالم الثالث ان يبقوا هكذا مكتوفي الايدي حياديين امام مشاكل بلادهم ؟ وهل يستطيعون ان يفلتوا من خضم الايديولوجيات التي تعصف بمجتمعاتهم ؟ الى غير ذلك من التساؤلات ...

وبهذه المناسبة يلذ لي ان اطرح على جميع المثقفين في هذا البلد السؤال التالي :

اذا كان من اختياراتنا القومية القضاء المبرم على **التبعية الثقافية** بعد ان قضينا على التبعية السياسية والاستعمار البغيض . **فكيف يمكن التحرر من التبعية الثقافية اذا لم نخطط جذريا ومن الآن لبحوثنا** التربوية والتعليمية الفلاحية . والاقتصادية والاجتماعية والحقوقية على الاقل ؟ فاذا بقينا هكذا تابعين مقلدين الى ما لا نهاية للمجتمعات الاجنبية . ومراكز بحوثها ، واذا قرر الاجانب ان يعيدوا النظر جذريا ومن الاساس ، في تنظيم جامعاتهم ومراكز بحوثهم ... فهل سنبقى نحن نترقبهم حتى يدخلوا التحويرات اللازمة على مؤسساتهم ، فنغلق مؤسساتنا وكلياتنا آنذاك ، ام كيف يكون العمل ؟ امام هذا الامر: وبهذه المناسبة فاننا نناشد بالحاح السيد كاتب

الدولة للتربية القومية والاقتصاد الوطني أن يمضي قدمًا الى الامام : في تونسة وتعريب التعليم ، الجامعي ، وتنظيمه وربطه بالحياة القومية واعادة تنظيم مراكز البحث العلمي من حيث وضع البرامج والخطط لتوجيه الباحثين والبحوث ... حتى تعود بالخير على توجيه معركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية في هذا البلد العزيز .

اليس مما يثلج الصدر حقا ، ان نرى **تطبيق مشروع ادخال اللغة العربية والفكر الاسلامي كمادة اجبارية في التعليم العالي** بجميع فروعه واختصاصاته؛ فمن المعلوم . انه وقع الشروع في تطبيق برنامج خاص باللغة العربية والتفكير الاسلامي والحضارة العربية في كافة الكليات والمعاهد التي لم تكن تدرس العربية في كافة الكليات والمعاهد التي لم تكن تدرس القومية للتعاضد . وكلية الحقوق والعلوم الاقتصادية؛ وكليات العلوم ، والطب ، والمدرسة القومية العليا للفلاحة ... اذن ان هذه الاجراءات التي اتخذتها كتابة الدولة للتربية القومية تعتبر في راينا من الامور المساعدة لاندماج الطلبة في الحياة القومية ، حتى لا تنقطع الصلة بين «لاب الجامعة والواقع القومي الحي، هذا الواقع الذي تقوم عليه تراثنا الثقافي والحضاري القديم والحديث نوطننا العزيز . اليس هذا مما يعزز مقومات شخصيتنا القومية ؟ كما يخطو بتعليمنا خطوة موفقة الى الامام ؟ .

بعد هذا التحليل السريع نقرر بكل وضوح ، اننا **لسنا في حاجة الى جل المناهج المستوردة والمذاهب الايديولوجية في حقل العلوم** التاريخية والاجتماعية ... **فلنقتصر فقط على الاخذ بعلم الغرب والشرق المادي والتكنولوجي والفني ولنترك ايديولوجياته ومذاهبه الفلسفية والعقائدية ، ونزعته الالحادية والوجودية والاستعمارية ... ولنتجنب دراسة تلك النظريات الجوفاء المفرغة من كل محتوى واقعي والمفعمة بالعواطف الذاتية** ، هناك مع الاسف افراد اذا قاموا بمحاضرات او بحوث اتخذوا ذلك الاسلوب الرتيب العقيم الذي هو شغوف بوضع وترتيب علامات دورية (Style stéréotypé) وهي اشبه شيء بما يحدث عادة في المكتبات والصيدليات من تبويب للكتب والدوريات والادوية ، واذا حرروا مقالات كانت عبارة عن ثرثرة نفعية لا اكثر ولا اقل ؛ فبدلا من ان يبحثوا عن الحقائق من خلال الوقائع والاحداث كان همهم ان يكتبوا في جمل جذابة وقوالب محلات بالزخرفة والبديع وقصدهم من ذلك هو استجلاب رضى اليافعين والبسطاء ؛ لقد شاع وانتشر هذا الاسلوب في عصرنا ويا للاسف ، واضر وما يزال يلحق الاضرار الجسيمة بالدين لم يهزهم الوهي العاقل ولا اليقظة العنيفة ، لذلك حتى نتمكن من تغيير هذا المنكر ، وتحويل هذا الواقع المتخلف، نسوق الملاحظات التالية :

— عدم اهمال البحث الجدي والجذري لواقع مجتمعنا المتخلف ، وذلك باستعمال جميع طرائق البحث العلمي الفعالة من تاريخية واجتماعية واقتصادية ... فمن لم يمارس القيام بالبحوث والتحقيقات لجوانب هذا الواقع او بعضها ، لا حق له في الكلام والكتابة .

— مقاطعة الاسلوب الرتيب اللاعلمي الذي المعنا اليه والذي يتجلى في الامور التالية :

— الانسياق في ثرثرة نفعية وكلام لا ينتهي وخال من كل معنى القصد منه امتهان الناس واحراجهم .

— اطلاق الكلام بدون موضوع ولا هدف .

— عدم الاخلاص في تحمل المسؤولية والاضرار بجميع الناس وذلك بالاعتداء على اشخاصهم ومقدساتهم ... مع اعتبارنا لما سبق . نعتقد ان **الخير كل الخير هو في استعمال المنهج العلمي المعياري، وهو المنهج الذي يستعين بعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وكل ما وصلت اليه العلوم الطبيعية والتكنولوجية من نتائج** ، هذا المنهج استعمل ويستعمل في الدراسات القومية والاشتراكية والشيوعية وهو من اكثر المناهج العلمية انتاجا وايجابية ، فاذا استعملناه نكون قد وضعنا انفسنا في بداية الطريق السوي لتحليل واقعنا المتخلف ، واصلاح منهجنا الفكري المتخلف ، وبالتالي كان خطوة ايجابية الى الامام للقضاء على التخلف ومشتقاته وفتحا موفقا لطرق التنمية الجذرية والرخاء الاقتصادي والاجتماعي ، فليبدا باحثونا ، من الآن ، في **جميع المعلومات وتحليلها واستنتاج تركيبات علمية** (Synthèses scientifiques)

بدل اتباع منهجيات لا علمية والتعصب لايديولوجيات اعتباطية ذرائعية مثل بعض الماركسيين والمتمركسين المنحرفين وغيرهم من التروتسكيين والفوضويين ، ان هؤلاء بصفتهم — احبوا ام كرهوا — اعضاء في هذه الامة لحما ودما قد اهملوا الشروط الواقعية لبلادهم وشعبهم ، فاشتراكيتهم تجريدية وخالية من كل محتوى اجتماعي ، اما **اشتراكيتنا فهي حل لمشكلة**

التخلف الاقتصادي والاجتماعي والفكري وطريق الى النمو والتقدم ـ هذا الحل الاشتراكي هو حل قومي استوجبته حتمية تاريخية ودفعنا اليه واقعنا المتخلف، ان اشتراكيتنا ترتكز قبل كل شيء على معطياتنا الذاتية والموضوعية وتستفيد بالدراسة من جميع النظريات والمذاهب الاشتراكية والخبرات الاجنبية على شرط ان تلائم واقعنا وذوقنا وروحنا ، وبذلك تكتسب اشتراكيتنا شكلا ومحتوى واسلوبا قوميا مشحونا بالحياة ويتقبله شعبنا ـ نحن نؤمن من كل كياننا ايمانا بالله وبانفسنا وبالعلم . بان **الاشتراكية الانسانية** هي انجع مذهب يخرجنا من التخلف ويدفعنا الى الامام ويحقق لنا اقتصادا جديدا وسياسة جديدة، وثقافة جديدة ايضا . هذه **الاشتراكية تجهل التناقض بين العلم والدين** ، ولسنا بحاجة الى سرد الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تحرض على محاربة الفساد والظلم بجميع انواعه ، ثم لسنا بحاجة الى الاتيان بشواهد تبرهن على ان ديننا الحنيف هو اقل الاديان السماوية غيبية (1) ، كما كرم الاسلام ابن آدم واستقطبه في جميع نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية ، وما قول الرسول محمد (صلعم) « اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا ، واعمل لاخراك كانك تموت غدا»الا مصداقا لما قدمنا.

فنحن الاشتراكيين نتكلم لغة شعبنا ، ونتعلم من خبرات شعبنا العظيم ، حتى نعلمه ونخدم مصالحه واهدافه ، اما اولئك المنحرفون الايديولوجيون ، فبعدهم عن قضية شعبهم قد داسوا المحتوى العلمي والقومي للاشتراكية ، وما ارادوا الا ان يكونوا امميين خياليين ، اما نحن فلا نرى اي **تناقض بين الاممية والقومية** ، بل بالعكس اذا تعمقنا قليلا وجدنا ان هناك **رابطة تاليفية بين القيمتين** ، وذلك ما ان تطبق النظرية الاشتراكية في اي بلد حتى تصبح قومية اى محلية ، كان على هؤلاء ان يقتصروا على حفظ نتف وتراتيل من اقوال ماركس وتروتسكي ورجيس دي بري وكاسترو ... معتبرين اياها الاشتراكية ذاتها بل لا بد من وضعها في سياقها التاريخي ، وحيزها المكاني ، حتى يعلموا كم يكون الفرق صلبا بين النظرية والتطبيق العيني لها . ومما ينكر ان هؤلاء بعد اقامتهم في البلاد الاجنبية ، ورجوعهم الى ارض الوطن اخذوا يرددون ما ابتعلوه طازجا في الخارج ونسوا او تناسوا، ان واجبهم هو دراسة الجديد ، وبعث القديم ، وخلق الجديد ، انهم اصبحوا وكانهم عبارة عن «مونوغراف» ضاربين عرض الحائط بمبدا علمي اساسي في العصر الذري ، وهو وحدة النظرية والعمل .

النتيجة من هذا الانحراف هي اخطاء كثيرة ارتكبت وترتكب ، وهي تنتشر كانتشار الامراض السارية ، ان هذا التكوين الفكري الغريب ، وهذا التهافت والتقليد الاعمى لكل ما هو غير تونسي قد اتاح لطبقة من الناس هي طبقة اولئك الذين يسمون انفسهم « بالتقدميين » ان تنصرف بحرية كاملة الى اللعب بالافكار والمذاهب المستوردة . لعب المتعطلين ملقية نظرات علوية على الحياة والعالم ، الواقع ان العجلات التي تدور في رؤوس هذه الفئة من الناس ليس لها صلة بحياة الشعب ولا بالحياة عامة ، ان هذه **الافكار المستوردة تشبه نباتات المناطق الاجنبية التي تستنبت بواسطة بيوت زجاجية في جو اصطناعي مكيف** وليس ثمة صلة بين هذا كله والارض التي هي عليها ؛ ليس ثمة اية صلة بين هذه الافكار وبين الواقع الراسخ الذي تتحرك فوقه جماهير الكائنات الحية ، انهم يظنون انهم يناقشون مصير الجماهير ووظيفتها التي يجب ان تقوم بها سعيا الى ما يرسمون لها من غايات واهداف سامية ، ان لعبهم هذا خطر ، او يمكن ان يصبح خطرا على الناس وعليهم ، ان الذي يسمعهم يتكلمون يظن ان جميع المشاكل قد حلت حلا موفقا وان جميع الطرق قد عبدت ولم يبق الا البداية في المسير ، مع انه لا شيء مهما في هذه الحياة يمكن ان يحل بسهولة بل كل مشكل هام يتطلب نفقات باهضة لحله او لمحاولة حله مع ما يحيق به من جهود واخطار.

الاصالة

اننا ونحن نتجه اتجاها اشتراكيا في تونس ؛ نؤمن بان **التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، هو الشكل الافضل للعلاقات الاجتماعية** ومتى آمنا بذلك فرضنا ارادتنا على الحياة والواقع لنصوغهما من جديد حسب اهدافنا وامانينا ووصلنا بذلك الى مرحلة النضج التاريخية .

وهل ننسى صرخة المرحوم الطاهر الحداد المخاصة الذي قال فيها : « اذا اردنا ان ندخل البيت ندخل من بابه ونصل الى غايتنا بيقين صحيح فليس لنا الا طريق واحد الا وهو : الاعتماد على النفس ! »

1) « ولقد آتينا داوود ... والنا له الحديد ان اعمل سابغات وقدر في السرد» (سورة 34ـ9\10)

ولا يكون اعتمادنا على انفسنا الا اذا اعتقدنا انها عظيمة ، ولا نشعر بعظمة انفسنا الا اذا عرفنا اننا من امة ذات شرف ، وسؤدد وتاريخ مجيد (...) يلزم ان نتقدم ، يلزم ان نعيش كامة لها حق في الحياة »(1) .

وهذا مفكرنا **ابن خلدون** الذي تناول عددا مهما من المسائل الاساسية التي اثارها ويثيرها معاصرون كما حاول الاجابة عنها بعد تحليل مسبق للتركيبات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ـ **بشر لاول مرة بما يسمى اليوم بالجدلية التاريخية واكتشف هذا المبدا الخطير ، قبل كارل ماركس بقرون،** فمن افكار ابن خلدون الاشتراكية ان **العمل الانساني هو العنصر الاساسي للثروة** (2) . وان **الراسمال المستغل يجب** ان يبتعد عن طريق الكادحين ثم يهاجم الاحتكار ولا سيما الاحتكار في الاقوات ، وينتقد التجار المحتكرين بشدة ويصفهم بابشع الصفات ، صابا عليهم جام غضبه ومتوعدهم بالخسران المبين (3) .

ان كتابات ابن خلدون ايها الاخوان هي مهمة جدا لانها تلقي الاضواء على ماضي البلاد العربية والاسلامية التي هي اليوم ضمن البلاد المتخلفة النامية كما يقال ؛ ففي مقدمته التي سماها ايف لاكوست (4) « بالاعجوبة العربية » يبدو ان تحليل عبقريتنا التونسي للشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمغرب العربي في القرون الوسطى على جانب عظيم من الاهمية ، اذ توفق الى وضع جملة من القوانين الاساسية ، تاريخية ، واجتماعية وسياسية .

وبعد هذا اليس من المدهش والمنعش في وقت واحد ان نرى مفكرا اسلاميا في بداية القرن الخامس عشر ، اي بداية عصور الانحطاط في العالم الاسلامي، يضع كل هذه التحاليل والبحوث العلمية ! (5) . ومما يذكر ان هناك من حاول اتباع المنهجية الخلدونية من المفكرين الغرب نذكر منهم خير الدين التونسي في كتابه : « اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك » .

بعد هذا نرى ان من واجبنا اليوم **الاعتماد على النفس للقيام بدراسات علمية ونقدية لتاريخنا الاجتماعي والاقتصادي والثقافي** ، وبذلك نعطي لاشتراكيتنا بعدا تاريخيا يساعدنا على وضع الخطط والبرامج السليمة ، ان اهمال دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلادنا يقود حتما الى رداءة التحليل للواقع الراهن : فلو استقرانا مثلا التاريخ التونسي والاسلامي لوجدنا جذورا للاشتراكية عميقة في الاسلام ، والتراث القومي ، وسلوك عظمائنا ، كما نجد اليوم نفس هذه الجذور في عاداتنا وتقاليدنا ، فكل ما توصلنا اليه في الحاضر هو تكامل لما توفر لنا بالامس ، فتشابك الماضي بالحاضر وتفاعلهما بما فيهما من مميزات وتناقض ادى الى ما ننعم به اليوم من حضارة ومعرفة . فثورات الانسان المتتالية في التاريخ ، جاءت الواحدة منها ، متضمنة معطيات الاولى وحاملة بذور المقبلة ، ان في سلوك الرسول (صلعم) والخلفاء الراشدين ومنهم عمر بن الخطاب ، وكذلك ابو ذر الغفاري والقرامطة وحسان بن نعمان الغساني وخير الدين باشا والطاهر الحداد ومحمد علي وحشاد وفخامة الرئيس الحبيب بورقيبة لافضل قدوة للسلوك الاشتراكي والسيرة العادلة .

وفي تراثنا التونسي نذكر سياسة حسان بن نعمان الغساني : فمنذ اكثر من عشرة قرون ركز **قواعد الدولة** الاسلامية لا في افريقية فحسب بل في اقطار المغرب العربي كله ، لقد دافع البربر اول الامر بشدة عن ذاتيتهم وكبريائهم بكل قوة وضراوة واعتبروا ان المسلمين كغيرهم من المحتلين الرومان والوندال والبيزنطيين ـ وهم قد قاسوا طيلة قرون اضطهاد هؤلاء ـ وظنوا ان المسلمين الفاتحين اتوا هم ايضا لاضطهادهم ونهبهم وفرض السخرة عليهم ،

---

1) جريدة الامة ـ عدد 32 ـ في 25 جوان 1922 .
2) المقدمة ـ دار الكتاب اللبناني ـ 1961 ـ ص : 680 ـ 681 .
3) المقدمة ـ مطبعة البيان العربي ـ ص : 841 .
4) Yves Lacoste : « Ibn Khaldoun », Paris, Ed. Maspero 1966 - p. 7-9.
5) انظر دراسة عن المنهجية الخلدونية بالفرنسية للمؤلف في جوهر الاسلام ـ ديسمبر 1968 ـ العدد 7 ـ ص : 12 ـ 16 (تونس) .
انظر ايضا مقالة بالفرنسية في صحيفة : L'Action Culturelle
العدد : 1931 ـ تونس ـ 9 مارس 1969 ـ ص : 9 .

لذلك قابلوا الفاتحين الجدد اول الامر بعين الحذر ، لكنهم ما لبثوا ان سادهم الدين الجديد الذي قدروا تعاليمه القائمة على المساواة والعدل ، وبهرتهم حضارة المسلمين حتى دخلوا فيه افواجا وجماعات واصبحوا بدورهم ، من دعاته المخلصين ، ناهيكم ان الجيش المغربي الذي يشكل البربر فيه جل قطاعاته الحربية كان بقيادة بربري هو طارق بن زياد الذي فتح اسبانيا سنة 711 م .

والجدير بالذكر ان الامير حسان بن نعمان الغساني الذي كان له الفضل الاكبر في تشجيع وتنشيط حركة نشر الاسلام والعربية ، قد وزع مساحات كبيرة من الاراضي على صغار فلاحي البربر وقد كانت ملكا للامبراطورية البيزنطية وهكذا ساعدهم على الارتزاق من الارض بالزراعة بعد ان كانوا غرباء عن ارضهم فتمركزوا في هذه الاراضي اسيادا وانشأوا مدنا وقرى بعد ان كانوا رحلا متهجين .

اليست هذه السياسة الحسانية من قبيل ما يسمى اليوم **بالاصلاح الزراعي** ! بمثل هذه السياسة الواقعية العادلة ، كسب الاسلام قلوب البربر جميعا، وهكذا انضمت الوحدة الدينية الى الوحدة الاجتماعية، والاندماج الروحي والمادي بين العناصر الاسلامية والبربرية اندماجا كليا في ظل العدالة الاجتماعية ، وحتى لا نضيع في حلم الماضي ، علينا ان « نلتفت بصراحة وحزم الى معطيات الحاضر وامكانيات المستقبل » كما اكد لنا ذلك الاخ عبد العزيز بن حسن، علينا اليوم ان نجدد حركتنا الاشتراكية بالنسبة للحركات والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في العصر الذري ، وحتى نربط حبل التاريخ الذي انقطع بنا طيلة عصور الانحطاط والظلام ، علينا ان ناخذ بالاساليب العلمية الجديدة والتكنولوجية الحديثة في حقل دراساتنا المادية والفكرية وربط ذلك كله بالواقع التونسي ، فليس « اخطر على امة من ان تلبسها مذهب امة اخرى دون نظر الى طبيعتها وحاجتها وحجمها وذوقها وروحها » كما قال توفيق الحكيم .

فالنسبة لدراسة تاريخ بلادنا الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ما زلنا في بداية الطريق ولم يقم باحثونا حتى الآن ببحوث كافية وجدية مكرسة للواقع الموضوعي ، ولو حاولوا لاتوا بالعجب العجاب ، ولكن مع الاسف ما زالوا متهافتين ، مثقلين بمركبات نقص عديدة امام الباحثين الاجانب .

اذا سمحتم فاني اشير الى محاولات الطاهر الحداد الرائعة :

هذا الرجل لم يدرس لا بالشرق ولا بالغرب ومع ذلك استطاع ان يطالع ويهضم منهجيات شرقية وغربية واستعمل في ابحاثه وتحاليله الواقعية الاجتماعية واحدث ما وصلت اليه الابحاث العلمية في عصره : خط في كتابة العمال التونسيين « تاريخ النضال الاجتماعي الانساني منذ بدء الخليقة الى عصره — ومن خلال المقطع التالي نتبين انه درس حتى المذهب الماركسي ، يقول الطاهر الحداد :

« يقوم رجال من العلماء المنقطعين لخدمة الانسانية يبحثون في تاريخ الانسان ، والحق الطبيعي، والحياة الاشتراكية ، واوفق نظام اجتماعي تتم به سعادة الانسان ، فتمخضت هذه الابحاث بعد الدرس الطويل اجيالا وقرونا عن كتاب في الاشتراكية في اوربا للاستاذ (كارل ماركس) الالماني الذي عد كتابه غاية احلام الانسانية ومبدأ يقوم على اعضاء العمال المخلصين البارين » (1)

وبضيق المجال هنا لعرض مقاطع من كتاباته حول الحركة النقابية في تونس ، والحركة التعاونية ، والاشتراكية التونسية ، والمراة في الشريعة والمجتمع ... وما الى ذلك من المواضيع والمشاكل التي تلتصق بالواقع التونسي التصاق اللحم بالعظم — لقد ناضل من اجل هذه الامور في تونس كما ناضل من اجلها الحداد بكل ما اوتي من قوة ، بقلمه ولسانه وقلبه الكبير — فراى الحداد من الاضطهاد ما راى فسحبت منه شهاداته ومؤهلاته ، واتهم بالكفر والزندقة ، وتظاهر ضده بعض مشائخ الدين مما هيج الراي العام عليه الذي اثارته صحف العصر ومنابر الوعظ والارشاد ... لكن ما استطاع المحافظون ان ينالوا من افكار الحداد فبقيت حية كالحديد ، وتحقق اليوم جانب مهم من مشاريعه واحلامه .

ولا يسعني اخيرا الا ان ادعو الى **الالتزام بالنقد والنقد الذاتي ، فهو خير درع لمجابهة الجهل والضعف والتخلف ، ولا بد من ان نواصل السير نحو الحق ولو تحطمت تحت اقدامنا عقد التواكل والخوف من مجابهة الواقع والحقيقة .**

---

1) كتاب « العمال التونسيون ... » ص : 20 .